تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٣﴾

شرح الكلمات:

بروجا: البروج: جمع البرج: وهو الركن والحصن (الأقرب). والبروج: القصور، والواحد برج، وبه سمِّي بروج النجوم لمنازلها المختصة بها. (المفردات)

وقد نقل صاحب "البحر المحيط" عن اللغوي الشهير أبي صالح أن البروج هنا بمعنى الكواكب العظام. (البحر المحيط)

سراجا: السراج: المصباح الذي يضاء بالليل؛ الشمس لأنها سراج النهار. (الأقرب)

خلفة: الخلفة يقال في أن يخلُف كلٌّ واحد الآخرَ (المفردات). وتقول العرب: له ولدانِ خِلفتانِ: أي أن أحدهما طويل والآخر قصير، أو أحدهما أبيض والآخر أسود (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى للكافرين: تقولون ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾؟ فاعلموا أن الرحمن هو ذلك الذي جعل في السماء منازل للنجوم وشمسًا مشرقة وقمرًا منيرًا، وهو الذي جعل الليل والنهار يتعاقبان لمن أراد أن ينتفع من هذا النصح أو أراد أن يصبح من عباد الله الشاكرين.

لقد نبّه الله تعالى هنا الكافرين أنه ما دام قد خلَق لجسم الإنسان الشمس والقمر والنجوم والهواء والماء والنار والتراب وصنوف الغذاء، فكيف يمكنه أن لا ينزل لهدايته أي صحيفة سماوية. إنه لا يُتوقع من أي إنسان ذي عقل بسيط أيضًا أن يسدّ الحاجات الدنيا ويهمل الحاجات الأهمّ، فما بالك بالله تعالى؟ لقد خلق الله تعالى برحمانيته لِعين الإنسان الضوءَ، ولأذنه الصوتَ، ولأنفه الشذى، ولِلسانه

أذواقا مختلفة، لذا فلا بد أن يكون قد أرسل لعقل الإنسان رسالة من الهدى لكي لا يظل عقله تائهًا في الشبهات، بل ينعَم باليقين والاطمئنان ساعيًا لتطوير حياته.

الواقع أنه كما تحتاج حياة الإنسان المادية إلى شمس وقمر، فإن حياته الروحانية أيضًا بحاجة إلى شمس وقمر، ولولاهما لأتى فمات روحانيًا، ولظل ظمآنًا وعطشانًا رغم أكله وشربه، ولظل أعمى رغم بصره، وأصمَّ رغم سمعه، وميتًا رغم حياته في الظاهر. وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٥). فترى أن الصحابة كانوا أحياء، ويأكلون ويشربون ويمشون، ومع ذلك يأمرهم الله تعالى أنهم إذا دُعوا للإحياء فعليهم أن يلبّوا دعوة الداعي. وهذا يبيّن جليًّا أن الموت قسمان: موت جسماني وموت روحاني. والموت الجسماني هو خروج الروح من جسد الإنسان، والموت الروحاني هو قطع الإنسان صلته عن الله تعالى. فإننا كما نحفر الآبار ونشقّ الأنهار ونزرع الزروع ونغرس البساتين حفاظًا على حياتنا المادية، كذلك لا بد لنا من ماء روحاني وغذاء سماوي للحفاظ على حياتنا الروحانية. وكما أن الفلاح يسقي زرعه بالماء، ويهيىء له ضوء الشمس والقمر حتى يُدرك وينضج، كذلك لا بد للناس من أن يسقوا زرع قلوبهم بماء الوحي ويُنضجوه بالتجليات الإلهية وأنوار الأنبياء حفاظًا على حياتهم الروحانية.

إذًا، فبمثال الشمس والقمر قد لفت الله تعالى أنظار الإنسان إلى النظام الروحاني الذي به تقوم حياته الروحانية. كما بيّن بمثال اختلاف الليل والنهار أنه حين تطلع الشمس المادية وتنشر الضوء في العالم كله، تحوِّل الظلام ضياءً، وتكشف كل الأشياء الخفية، فيسهُل التمييز بين الجيد والرديء والطاهر والخبيث، ويشتغل الإنسان بأمور دنياه مطمئنًا، ويجمع أسباب الحياة للمستقبل، ويسعى لأن يجعلها أفضل قدر الإمكان. كذلك عندما تطلع الشمس الروحانية تنشر الضوء على أرض القلوب وتبدل ظلمة السيئات إلى نور الحسنات، وتكشف ما في الإنسان من عيوب وآثام، وتطهّره مما علقت بجسده الروحاني من مساوئ وخبائث وأدران، وتشفيه مما به من أسقام وأمراض، وعندها تتولد فيه قوة التمييز بين الخير والشر،

ويسعى لإصلاح حياته الروحانية بخلوص القلب وصدق النيّة، ويُنشئ مع الله تعالى صلة صادقة. فثبت أن الشمس الروحانية تفعل أكثر مما تفعله الشمس المادية بطلوعها على الأرض؛ ذلك لأن الشمس المادية إنما تهيئ الأسباب لهذه الحياة التي هي لأيام معدودة، أما الشمس الروحانية فتزود الإنسان بأسباب الحياة الأبدية، وتوصله بربّه ﷻ.

ثم إن الليل حين يضرب أطنابه يخيم الظلام على العالم كله، ويترك الإنسان مشاغله ليرتاح، فينام نومة تُنسيه الدنيا وما فيها. كذلك عندما تأتي على حياة الناس الروحانية فترةُ الليل المظلمة يترك أكثرهم الدينَ وتستولي عليهم الغفلة. أما الذين يريدون منهم أن يعملوا شيئا، فينتفعون ممن قد استفادوا من المأمور من الله تعالى وكانوا بمثابة القمر والنجوم، وينتظرون ذلك الضوء الذي يطلع بعد الليل، ويقضون لياليهم في الدعاء والابتهال، ساعين للانتفاع من فيوض صفة الله تعالى "الرحيم" كما وصفهم الله تعالى بقوله ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾.

فالله تعالى ينبّه الإنسان هنا أن يتوجّه برؤية النظام الشمسي المادي إلى النظام الشمسي الروحاني الذي تتوقف عليه حياته الأبدية، ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾.. أي أننا نذكر هذه الأمور لكي يتعظ بها الإنسان ويشكر اللهَ تعالى بأنه لم يُسعفه بشتى الأسباب والنعم في الحياة المادية فقط، بل قد هيأ له أسباب الأمن والراحة لحياته الروحانية أيضا.

كما أن قول الله تعالى ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ يوضح أن الناس في الدنيا قسمان: قسمٌ يكون جانب الخير والصلاح فيهم ضعيفًا جدًّا، فلا يبرحون يتبعون خطوات الشيطان، فيستحقون الإنذار والتحذير حتى يرتدعوا عن ارتكاب السيئات. وقِسمٌ آخر ديدنُهم الشكر. إنهم يكونون محرومين من النور الذي يتمتع به المرء باتباع الدين، ومع ذلك لا يسيئون استعمال ما أعطاهم الله من نعم وطاقات، بل ينتفعون بها، كما يسعون لينفعوا بها الآخرين. فهناك فئة من الناس ليس لهم نصيبٌ من الخير والخُلق، وفئة أخرى منهم هم ذوو حظ من الخير والخُلق. وبما أن الله تعالى قد أشار باختلاف الليل والنهار إلى فترتين تأتيان على الناس، فترة

يبعث الله فيها رسله لإصلاح الدنيا وفترة أخرى يسود فيها الظلام والضلال، لذا فقد بيّن الله تعالى بقوله ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ الحكمةَ من وراء اختلاف الليل والنهار من الناحية الروحانية، وأخبر عن سبب إتيانه بالنهار بعد الليل وعن سبب إتيانه بشمس الهداية بعد الظلام الروحاني. يقول تعالى إن هدفنا من إنزال الوحي على الرسول أن نجعل به الفئة الآثمة من الناس جماعةً من الصالحين، أما الذين عندهم صلاح فطري فنأخذهم من خلال هذا الوحي إلى مقام أرفع من ذي قبل؛ أي مقام الشكر. وكأن الله تعالى يتحدث هنا عن نوعين من الناس من حيث الدرجات: نوع منهم يسمعون النصح، فيتخلصون مما بهم من عيوب ونقائص، ونوع أخر منهم ممن لا يكتفون بهذا القدر من الإصلاح، بل لا يزالون في الرقي والصعود، فيشكرون الله تعالى ويحمدونه دائمًا برؤية نعمه وأياديه.

واعلم أن قوله تعالى ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ يؤكد إمكانية إصلاح كل إنسان في الدنيا. فثبت أن عقيدة المسيحيين بأن الإنسان آثم بفطرته عقيدة باطلة. لو كان الإنسان نجسًا بفطرته لما كان من الممكن إصلاح الآثمين وإيصال الصالحين إلى درجات روحانية رفيعة.

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا وهو: لماذا قال الله تعالى إنه قد جعل نظام هذا الكون المادي ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ مع أن الكافر أيضًا يستفيد منه؟

واعلمْ أنه قد ورد في الحديث أن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: "لولاك لما خلقت الأفلاك".. أي لولا أني أردتُ أن أخلقك لما خلقتُ السماوات والأرض. ومن الحقائق الثابتة أيضًا أن كل ما خلق الله في الدنيا لم يخلقه للكافرين، بل خلقه في الواقع للمؤمنين الذين يعملون بأحكامه تعالى، ولكن الكافرين ينتفعون منها انتفاعا ضمنيا. فمثل الكافرين كمثل الخادم الذي يذهب مع سيده إلى مأدبة طعام أعدها له أحد أصدقائه ويشترك في الطعام مع سيده. فالحق أن الله تعالى قد خلق الكون كله من أجل المؤمنين، ولكن الكافرين أيضا ينتفعون من هذا النظام كالتابعين والخادمين. وإلا فهم ليسوا إلا كما وصفهم الله تعالى في القرآن الكريم ﴿إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(الفرقان:٤٥). إنما مثلهم كمثل شخص يخرج على

حصانه إلى أرضه، فيأكل حصانه أيضًا من حشيش الأرض وكلئها، وإلا فإن الله تعالى إنما خلق السماوات والأرض ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾.

وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾

شرح الكلمات:

هونًا: هانَ عليه الأمر: لانَ وسهُل. والهونُ: السكينة والوقار (الأقرب).

يبيتون: باتَ يبيتُ: أدركه الليل نامَ أو لم ينم. وقال الفرّاء: سهَر الليلَ كلَّه في طاعة أو معصية، وجعل بعضهم منه: ﴿والذين يبيتون لربّهم سُجّدا وقياما﴾. (الأقرب)

غَرامًا: الغرام: الشرُّ الدائم؛ الهلاكُ؛ العذابُ. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى في هذه الآيات وما بعدها صفات عباد الرحمن. هناك كثير من الناس الذين يسمّون بكل حب وشوق أولادهم عباد الرحمن، وإذا سُئل أحد أولادهم: ما اسمك؟ قال بكل فخرٍ: أنا عبد الرحمن. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: أَعبادُ الرحمن هم بالاسم فقط أم في الحقيقة أيضا؟ لا شك أن الكافرين والمنافقين أيضًا من عباد الله تعالى، ولكنه تعالى قال في وصفهم ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(الأعراف:١٨٠)، بل أخبر تعالى أن بعض عباده صاروا قردة

وخنازير (المائدة:٦١)، وقد وصف الله تعالى بعض هؤلاء العباد بأنهم ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾(البينة:٧).. أي أنهم أسوأُ من كل مخلوق.

لقد ثبت من هنا أن لا فخر للإنسان إذا سُمّي عبد الله بالاسم فقط، إذ لو كان هذا يجعله من عباد الله المقربين لما قال الله تعالى لأصحاب النفس المطمئنة ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر:٣٠-٣١). لقد ثبت من هنا أن الدخول في عباد الله مقامٌ رفيع جدًّا يتبوأه أصحاب النفوس المطمئنة، وإلا فإنهم كانوا عباد الله من قبل من حيث الخَلق، وكان الله تعالى هو رازقهم ومالكهم.

ثم إن قوله تعالى ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ يوضح أن الإنسان يكون عبدًا لله من وجهين. لا شك أن جميع البشر عباد الله من حيث الخَلق، ولكن بعض الناس يكونون عباد الله وبعضهم لا يكونون عباده لسبب معين. فالذين يطيعون أحكامه هم عباد الله، والذين لا يطيعون أوامره لا يُسمَّون عباد الله بل يصبحون عباد الشيطان أو عباد نفوسهم، ولذلك قد ذكر الله تعالى هنا بعض الصفات التي يتحلى بها عباده ذوو النفوس الطاهرة.

بيد أن الله تعالى لم يُسمِّهم هنا عباد الله بل عباد الرحمن. ذلك لأن الكافرين كانوا يسألون مرارا ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾، وردًّا على سؤالهم قد لفت الله تعالى أولاً أنظارهم إلى السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم وأخبرهم أن هذا الكون دليل على رحمانيته. ثم قدّم لهم شخصَ النبي ﷺ الذي كان مظهرا كاملا لصفة الله الرحمن. أما الآن فيقول الله تعالى لهم إذا كانت هذه الشواهد والبراهين لا تكفي لفتح عيونكم ولا ترون بها رحمانية الله تعالى متجلية في الكون، فعليكم أن تنظروا إلى عباد الله الذين هم صورة متجسدة لرحمانيته تعالى.

أي أن الشمس كما تشرق الأرضُ بأشعتها وتبدّد الظلمة كلها، كذلك فإن المؤمنين بمحمد ﷺ يمدّون أهلَ الدنيا ببركة صحبته بالنور من الناحية العلمية والعقلية، وينقذونهم من هوّة الدمار الخُلقي والديني والروحاني، ويهدونهم إلى طريق الرقي والنجاح.

وكما أن القمر يستمد الضوء من الشمس، ثم ينشر في الأرض نوره الباعث على الراحة والسكينة، كذلك فإن هؤلاء القوم يتلقون من الله تعالى نور الوحي والإلهام، وينفعون أهل الدنيا بالبركات التي ليس منبعها العقل الإنساني بل وحي الله المتجدد.

وكما أن الليل يجلب الراحة والسكينة للناس، كذلك فإن هؤلاء القوم يصبحون عونًا للفقراء، وملجأً للمساكين، ومأوى اليتامى والأرامل، ويمحون كل نزاع وخصومة من الدنيا، ويُرسون الأساس لسلام عالمي.

وكما أن المطر ينزل من السماء في العالم المادي فيروي الأراضي العطشى، كذلك فإن هؤلاء العباد يكونون بمثابة مطر للعلم والعرفان حيث يُحدث في الدنيا انقلابا عظيما. وكما أن المطر يُنبت صنوف الثمار والفواكه والأزهار والأغذية، كذلك فإن هؤلاء العباد يتسببون في انكشاف شتى العلوم والمعارف الجديدة في العالم.

وكما أن الأرض تعمل كالفرش للجميع، كذلك فإن هؤلاء العباد يمدّون رداء فيوضهم لكل قومٍ، ويستقبلون في حضن محبتهم الشرقي والغربي والعربي والأعجمي كلهم.

باختصار، إن هؤلاء القوم يكونون مثالاً حيًّا لصفة الله الرحمن. إنهم يجرون إلى الله كالماء، ويطيرون إليه كالهواء، ويظلون ثابتين في المحن والشدائد كالأرض، ويحرقون الشياطين كالنار، ويحفظون أهل الدنيا كالجبال، وتتجلى برؤيتهم رحمانية الإله الرحمن للإنسان.

وقد ذكر الله تعالى العلامة الأولى لعباد الرحمن أنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾. والهون هو السكينة والوقار. والمراد أنهم يعيشون عيشة الاعتدال، فلا يظلمون أحدًا نتيجة الغضب والاستعجال، ولا يقصّرون في أداء واجباتهم من جراء الكسل والغفلة؛ بل كما أن السماء تساعد على نماء طاقات الأرض وقدراتها، كذلك فإنهم يتسببون في رقي الناس وفلاحهم وخيرهم، ولا يتسببون في هلاكهم ودمارهم.

أما قوله تعالى ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾، فيعني أن الجاهلين عندما يحاولون إثارة عباد الرحمن بالخصام والفساد والتصرفات الخاطئة، فلا يغضب هؤلاء ولا يتصرفون تصرفًا خاطئًا، بل يريدون في هذه الحالة أيضا السلام. أي أنهم يتّبعون الطرق التي تؤدي إلى إصلاح القوم وإلى توطيد الأمن والسلام في المجتمع.

بيد أن هناك معنًى آخر لهذه الآية لم يلتفت إليه إلا قليل من الناس، وهو أن الله تعالى قد بيّن هنا صفات المسلمين حين يكونون غالبين وحاكمين. ولذلك لم يقل الله تعالى هنا "يمشون في الأرض" بل قال ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾. وحرف "على" هنا يفيد الاستعلاء، حيث أخبر الله تعالى أنه سيهب له الغلبة على العالم، فيمشون في الأرض كأمة غالبة منتصرة. وكأن المشي هنا ليس المشية العادية، بل مشية الغالبين والمنتصرين. فكأنه تعالى يبين هنا أنهم سيتبوؤون مقاما بحيث يستطيعون سحق الناس بقوتهم. وهذه الجملة تماثل ما قالت "نملة" لقومها عن سليمان عليه السلام ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(النمل:١٩).. أي يا شعبَ "نملة"، ادخلوا بيوتكم حتى لا يسحقكم سليمان وجنودُه الجرّارة لجهلهم بأحوالكم. فكما أن الله تعالى أخبر أن سليمان عليه السلام كان يسير بجيطة حتى لا يسحق قومًا، كذلك قال الله تعالى عن المسلمين إنهم عندما يصبحون غالبين على العالم يأخذون الحذر الشديد من أن يدوسوا أمة من الأمم بقوتهم. أي أنهم رغم كونهم قادرين على قمع الناس ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ بسبب صلاحهم وورعهم.. أي أنهم يعيشون حذرين من أن يتضرر فرد أو قوم بأيديهم بدون حقّ.

أما قوله تعالى ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ فأشار به إلى أن الناس إذا نالوا الحكم فقد يؤذون الآخرين، ومن عادة الحكّام أنهم إذا أساء أحدٌ إليهم بكلامه يهددونه بأنهم سيعلمونه الدرس وينزلون به العقاب. ولكن الله تعالى يقول عن المسلمين إنهم إذا تكلم معهم أحد بجهالة زمن حكمهم وغلبتهم وقوتهم، فإنهم لا يستاءون منه بل يبتسمون له.

ورد في الحديث أن يهوديًا جاء النبي ﷺ وتقاضاه بدَينه ببالغ القسوة، فغضب الصحابة غضبًا شديدًا، وشهّروا سيوفهم، ولكن النبي ﷺ قال: "دَعُوه فإن لصاحب الحق مقالاً" (البخاري: كتاب الوكالة، باب الوكالة في قضاء الديون). وورد أن شخصًا قال للنبي ﷺ حين قسم الأموال: "لم أَرَك عدَلتَ". فامتشق عمر رضي الله عنه حُسامه وكاد يضرب عنقه. فقال النبي :ﷺ دَعْه ولا تتعرض له. (مسند أحمد الجزء الثاني ص ٢١٩، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص)

فقول الله تعالى ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ يبين أن المسلمين لن يستاءوا من جهالة أحد رغم غلبتهم وقدرتهم، بل سيعملون على سلامته وحماية حقوقه.

والحق أن سمو أخلاق الإنسان يعرف وقت الغلبة، وإلا فإن الضعيف يتحمل الضرب دائمًا لضعفه، إذ لم يكن عنده خيار إلا أن يتحمل الضرب. ولكن الذي يعفو وهو قادر على الانتقام، فلا شك أن عفوه دليل على سمو خُلقه.

ثم بيّن الله تعالى علامة أخرى لعباد الرحمن فقال ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾. لقد ذكر الله تعالى هنا خصوصيتين لعباد الرحمن: أولاهما أنهم يلجأون، في ساعات المحن والشدائد التي تشبه ظلمة الليل، إلى الدعاء والابتهال بشكل خاص، منيبين إليه تعالى ساجدين على عتبته، كما يواظبون على أداء صلاة التهجّد في الأيام العادية حتى تصبح شعارًا لهم.

لقد بيّن الله تعالى هنا أنهم لا يقضون لياليهم يغطّون في النوم العميق، بل يقضونها في ذكر الله تعالى وعبادته. إنهم يخافون برؤية ظلمة الليل أن تخيّم عليهم الظلمة الروحانية، فيطلبون الله رحمته بالدعاء والاستغفار والإنابة إليه تعالى.

لقد أكد الله تعالى أهمية صلاة التهجد في موضع آخر من القرآن الكريم فقال ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾(المزمل:٧).. أي أن قيام الليل أفضل وسيلة لقمع أهواء النفس، وأن الذين يخرّون ساجدين لله تعالى في جوف الليالي يحرزون الكمال في الروحانية حتى إنهم يتعودون على الصدق دائمًا.

لقد كان النبي ﷺ شديد الاهتمام بصلاة التهجد حتى إنه كان يخرج ليرى من الذي يصلّي التهجد. وذات مرة أثنى شخص على عبد الله بن عمر أمام النبي ﷺ، فقال: "نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل". يبدو أنه كان يتكاسل في أداء التهجد في تلك الأيام، فنبّهه النبي ﷺ بأن يترك الكسل. فواظب على التهجد منذ ذلك اليوم. (البخاري: كتاب التهجد، باب فضل مَن تعارّ من الليل يصلي)

وذهب النبي ﷺ في ليلة إلى بيت عليّ وابنته فاطمة، وقال لهما: "ألا تصلّيان"؟ فقال عليّ: "يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعَثَنَا". فانصرف النبي ﷺ من عندهما إلى بيته وهو يقول ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (البخاري: كتاب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على قيام الليل). لقد خرج النبي ﷺ من عندهما لأن عليًا ﷺ بدلاً من أن يعترف بخطئه أخذ يقدم المعاذير ويقول: نظل نائمين لأن الله تعالى لا يريد لنا أن نستيقظ.

وكان النبي ﷺ يقول: إذا استيقظ الرجل بالليل لصلاة التهجد فعليه أن يوقظ زوجته أيضا، وإذا لم تستيقظ فليرشّ على وجهها الماء. وإذا استيقظت المرأة قبل الرجل وأيقظت زوجها و لم يستيقظ، فعليها أن ترشّ على وجهه من الماء. (أبو داود: كتاب الصلاة، باب قيام الليل)

لقد أكد النبي ﷺ على أهمية التهجد جدًا، فقال إن الله تبارك وتعالى يقترب من عباده في آخر الليل ويستجيب لدعائهم في ذلك الوقت أكثر من النهار. (البخاري: كتاب الصلاة، باب الدعاء والصلاة في آخر الليل)

وقال النبي ﷺ في حديث آخر إن الله تعالى أخبره: "ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها". (البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع)

هذا الحديث يبيّن لنا كم يساعد قيامُ الليل المرءَ على التقرب إلى الله تعالى، ولكن المؤسف أن عادة صلاة التهجد في هذا الزمن قد قلّت، مع أن الله تعالى قد

بيّن أن من أهمّ صفات عباد الرحمن أنهم يقضون لياليهم قائمين ساجدين أمام الله تعالى.

وبما أن هذه الآيات تشير إلى خصوصيات المسلمين زمن حكمهم وغلبتهم، فقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾ يعني أنهم لن ينغمسوا في حياة البذخ والملذات زمن غلبتهم على العالم، بل يقضون لياليهم في القيام والسجود أمام الله تعالى. عندما ندرس التاريخ نجد المسلمين متصفين بهذه الخصوصية بشكل لافت للنظر. فقد ورد أنه في أيام الحرب بين المسلمين والروم، بعث القائد الروماني وفدًا إلى المسلمين يستطلع أحوالهم وأخبارهم. فلما رجع الوفد قالوا للقائد الروماني: لقد وجدناهم أقلَّ منا عددًا، ولكنهم خلق عجيب. إنهم ليسو أناسًا بل هم من الجنّ، إذ يقاتلون وقت النهار ويقفون لصلاة التهجد في جوف الليل يعبدون الله ويذكرونه، في حين أن جنودنا المصابين بالإرهاق بسبب الحرب طوال النهار ينغمسون في تعاطي الخمر والرقص والغناء ليلاً، ثم يلجؤون إلى النوم. (البداية والنهاية الجزء السابع ص ١٥-١٦: وقعة اليرموك)

ومن أجل ذلك ترى كيف أن الله تعالى قد نزل لنصرتهم من السماء وجعلهم غالبين على الدول العظيمة القوية. لم يكن عدد سكان الجزيرة العربية حينذاك أكثر من مئة وثمانين ألف نسمة، ومع ذلك اصطدموا بإمبراطورية قوية للرومان الذين كان عددهم حوالي عشرين مليونًا، ومن ناحية أخرى فقد شنّوا الهجوم على إمبراطورية كسرى التي كان عدد سكانها ثلاثين مليونا. وهذا يعني أن دولة كان عدد سكانها مئة وثمانين ألفًا فقط، قد هاجمت في وقت واحد إمبراطوريتين كان عدد سكانهما خمسين مليون شخص. بل كانت بلاد الهند والصين وتركيا وأرمينيا والعراق وفلسطين ومصر كلها خاضعة لهاتين الإمبراطوريتين، ولكن هذه الحفنة من المسلمين خرجوا لقتالهم وقضوا عليهم قضاءً مبرمًا، ووصلت جنودهم إلى أسوار القسطنطينية خلال اثني عشر عاما. والحق أن المسلمين لم يحرزوا هذه الانتصارات إلا نتيجة ذكر الله تعالى ولكونهم ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾. ولكن المسلمين لما فسدوا وبدلاً من أن يبيتوا في ذكر الله

أخذوا يبيتون في الملذات والرقص والغناء، وبدأوا يقولون إن إسحاق الموصلي أفضل المغنين، وأن فلانة البغيّة من أفضل الراقصات، سلّط الله لهلاكهم "هولاكوخان" على بغداد. فقتَلوا في يوم واحدٍ مليونًا وثمانمئة ألف مسلم، و لم يتركوا أي امرأة من الأسرة الملكية إلا وارتكبوا بها الفاحشة. فذهب المسلمون إلى أحد أولياء الله تعالى يطلبون منه الدعاء لنجاة بغداد من الدمار. فأجابهم: ماذا أفعل؟ فإنني كلما أرفع يدي للدعاء أسمع أصواتا لملائكة الله تقول: أيها الكفّار، اقتلوا الفجّار. أي يا أيها الكافرون، اقتلوا هؤلاء المسلمين الذين أصبحوا فاجرين فاسقين. فدُمرّت بغداد تدميرًا، وقُضي على الدولة العباسية للأبد. (تاريخ ابن خلدون مجلد ٣ ص ٥٣٧). مع أن المسلمين كانوا في الماضي أقوياء لدرجة أن ستين مسلمًا فقط تمكّنوا من إلحاق الهزيمة بالجيش الروماني الذي كان قوامه ستين ألف مقاتل في إحدى الحروب. ومع ذلك لم يُستشهد من هؤلاء الستين سوى اثني عشر، وجُرح منهم عشرون بجراح بسيطة، أما الباقون فرجعوا بسلام. (فتوح الشام للواقدي: وقعة اليرموك)

هذه النصرة الإلهية والتأييد الرباني إنما تيسرت للمسلمين لأنهم لم يجعلوا قومهم وغلبتهم سببًا للانغماس في الملذات، بل ظلت ألسنتهم طريّة بذكر الله تعالى إبان الغلبة والقوة، وكانوا يبيتون لربهم سُجّدًا وقِيامًا.

لقد جاءت في الدنيا الكثير من شعوب وأمم منتصرة عظيمة، ولكنك لن تجد في التاريخ مثالاً آخر لقوم كانوا يخشون الله تعالى بحيث ما كان سيفهم يرتفع ضد امرأة أو طفل أو شيخ أو راهب أو رجل دين، وما سفكوا بسيفهم دم إنسان بغير حق، وقضوا لياليهم في بكاء وابتهال أمام الله تعالى. إن هذه الميزة العظيمة لم توجد إلا في صحابة محمد ﷺ الذين أثنى الله أمام الكفار على سمو أخلاقهم وعظيم سيرتهم، وذكّرهم أن هؤلاء القوم كانوا منكم ومن بلدكم، وقضوا معظم حياتهم بين ظهرانيكم، وأنتم تعلمون والجميع يعلمون أنهم لم يكونوا من قبل يمشون على الأرض هونا، و لم يكونوا من قبل يبيتون لربهم سجّدًا وقيامًا، بل كان ديدنهم الظلم والعدوان، وشرب الخمر والانغماس في الملذات ليل نهار، ولكنهم لما آمنوا بكلام

الرب الرحمن واتبعوا خطوات محمد ﷺ، تَغيّروا كلية، وحصل في أخلاقهم وروحانيتهم انقلاب عظيم. إذا لم يكن هذا الانقلاب ببركة إيمانهم بربهم الرحمن فكيف تحلوا بهذه المزايا والمحاسن؟ وما الذي جعلهم يتخلقون بهذه الأخلاق العالية السامية؟

ثم يذكر الله تعالى علامة أخرى لعباد الرحمن، فيقول ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾.. أي أن هؤلاء يدعون الله تعالى دائمًا ويقولون: ربنا باعِدْ بيننا وبين عذاب جهنم لأن عذابها مدمر، ولأنها مكان سيئ سواء للإقامة المؤقتة أو الأبدية.

لا شك أن المراد من جهنم هنا هو تلك التي تكون في الآخرة والتي يستعيذ منها كل مؤمن بالله تعالى، ولكن يمكن إطلاق جهنم على كل ما يسبب للمرء في الدنيا أذى وألمًا، ويعرّض نفسه وماله أو عِرضه وشرفه للخطر، ويخزيه ويذلّه في أعين القوم وأهل الوطن.

والواقع أن كلمة جهنم مركبة من "جهن" و"جهم"؛ وجَهَنَ يعني قرُب، وجَهُمَ يعني صار عابس الوجه (الأقرب). وعليه، فيمكن إطلاق جهنم على كل شيء يتوق المرء للاقتراب منه، ولكنه حين يقترب منه يعبس خوفًا وذعرًا. والحق أن لفظ جهنم يسلّط الضوء على حقيقة الأفعال التي تُدخل الناس في النار، حيث بيّن الله تعالى أن الإنسان يُعجبه الملذات والسيئات ويحاول الاقتراب منها، ولكنه عندما يرتكبها ويرى عاقبتها الوخيمة، يصبح عابس الوجه ويبكي ويصرخ ويقول: لقد أخطأت خطأ فادحا.

إذًا فإن الله تعالى قد بيّن هنا من علامات عباد الرحمن أنهم يدعون الله قيامًا وقعودًا بأن يحفظهم من كل عمل يذلّهم ويخزيهم في الدنيا والآخرة. فيقولون: ربنا احمنا من جهنم الإفلاس والفقر، ومن جهنم قلّة العلم والجهل، ومن جهنم سوء الخلق والترف، ومن جهنم حبّ الدنيا وعبادة الأهواء، ومن جهنم فساد الذراري والأجيال، ومن جهنم الكفر والأعمال الشيطانية، ومن جهنم اللادينية والإباحية، ومن جهنم النفاق والفسوق، ومن جهنم الكِبر والظلم والعدوان، ومن جهنم

الحرمان من حبك ورضاك؛ فكل هذه المعاصي تؤدي إلى دمارنا وخزينا، سواءً وقعنا فيها بشكل مؤقت أو بشكل دائم. فربنا، لا تَدَعْ هذه المفاسد تتسرب إلينا حتى بشكل مؤقت، كي تظل خطواتنا ثابتة على الصراط المستقيم دائما. وكأن دعاء ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ الوارد في سورة الفاتحة قد أُعيد هنا في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾.

إذًا، فقد ذكر الله تعالى هنا من علامات عباده الأخيار أنهم يخشون في أيام غلبتهم أن يصاب قومهم بالتردّي والانحطاط، ولذلك يظلّون ساجدين على عتبة الله تعالى ويدعونه ليل نهار قائلين: ربنا احفَظْنا وأجيالَنا من كل فساد، لتدوم هذه الجنة التي أنعمتَ بها علينا بمحض فضلك، ولا يدخلَ فيها إبليس في شكل حية تلدغنا في عقبنا.

ولو أن المسلمين تذكَّروا هذا الدعاء زمن غلبتهم دائما، واستعاذوا بالله تعالى من الانحطاط القومي عند كل نجاح، لتفضل الله عليهم فضلاً دائما ولمضوا قدمًا في مجال الرقي دائما وأبدا.

بيد أن هذه الآية، كما قلت من قبل، تعلِّم الدعاء بالنجاة من جهنّم في الآخرة أيضًا، حيث بيّن الله تعالى أن جهنّم مكان سيئ جدًّا للإقامة المؤقّتة والإقامة الدائمة. وقد بيّن الله تعالى بذلك النظريةَ القرآنية عن الجحيم بأنها ليست أبدية. ذلك أن لفظ ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ يعني مكان الإقامة المؤقتة؛ وبما أن الجحيم قد وُصفت هنا بأنها ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، ففي هذا إشارة أن قليلا من عذابها يكون كثيرًا لشدّة آلامه، فلا داعي لأن يطول عذابها وتكون خالدة.

لقد بيّن الله تعالى هذا المعنى في مواضع أخرى من القرآن الكريم بكلمات صريحة حيث قال ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٧). وما دام الإنسان قد خُلق ليكون عبدًا لله تعالى، فلن يتحقق غرض خلقه لو بقي في الجحيم للأبد.

وقد زاد الله تعالى هذا المعنى وضوحًا في قوله تعالى للنفس المطمئنة ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر:٣٠-٣١). فثبت من هنا أن المقام الحقيقي للعبد هو الجنة، وما دام كل إنسان قد خُلق ليكون عبدا لله تعالى فلا بد من التسليم بأن

كل إنسان سيدخل الجنة. فثبت أن جهنّم مكان للإقامة المؤقتة وليست للإقامة الأبدية بتاتا.

ويقول الله تعالى في موضع أخر ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(الأنبياء:٤٨). فلو دخل أحد جهنم نتيجة كثرة سيئاته، وظل فيها إلى أبد الآبدين، فلن ينال جزاءً على حسناته، فلا بد أن ينتهي عقابه في يوم من الأيام لينال جزاء حسناته أيضًا.

وقال الله تعالى أيضًا ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾(القارعة:٩-١٠).. أي كما أن الجنين يبقى في رحم أمه لفترة محدودة ثم يخرج من بطنها، كذلك حينما تنتهي عقوبة أهل جهنم يخرجهم الله منها ويُدخلهم الجنة.

كذلك يقول الله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(هود:١٠٧-١٠٩). لقد قال الله تعالى هنا لدى وصف أهل جهنم كلمة ﴿إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.. أي أن ربّك إذا شاء أخرجهم من جهنم، ومن ذا الذي يستطيع أن يحول دون المشيئة الإلهية؟ بينما قال تعالى عن المؤمنين ﴿إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.. أي لو شاء الله تعالى لأخرجهم من الجنة، ولكن الجنة عطاء غير مقطوع. فثبت من هذه المقارنة أن عذاب جهنم سينتهي في يوم من الأيام، لأن الله تعالى قد أمّل أهلها بالخروج منها، بينما قال عن أهل الجنة إنهم يعطون عطاء لا انقطاع له.

ثم يقول الله تعالى ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٧). وحيث إن رحمة الله تعالى تسع كل شيء فلا بد أن تُظلّ الرحمة الإلهية بظلّها جهنمَ أيضًا في يوم من الأيام، فيُخرَج أهلها ويُدخَلوا الجنة.

ورد في الحديث أيضا أن النبي ﷺ قال: "يأتي على جهنم زمان ليس فيها أحد ونسيم الصَبا تحرّك أبوابها".

إذًا، فإن الحسنات جزاؤها أبديٌ، ولكن عذاب جهنم ليس أبديًا بحسب تعليم الإسلام. لا شك أن عذاب جهنم شيء مخيف ومؤلم، ولكن محبة الله تعالى ستفور في نهاية المطاف وسيُظِلُّ الآثمين أيضا بظلّ رحمته تعالى.

وأرى لزامًا عليّ هنا أن أزيل شبهة قد تساور البعض بسبب قول الله تعالى في مكان آخر من القرآن الكريم ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾(البقرة:١٦٨). فيجب أن لا يتسرع أحد هنا فيقول: لقد نفى الله تعالى هنا خروجهم من النار. صحيح أن الله تعالى قد نفى خروجهم منها بقولهم، ولكنه تعالى لم ينف خروجهم منها بفضله تعالى. إذًا، فالمراد أن أهل النار لن يستطيعوا الخروج منها بقولهم، ولكن الله تعالى سيخرجهم منها رحمة منه وفضلا.

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

لم يسرفوا: أسرفَ مالَه: بذّره؛ وقيل أنفقَه في غير طاعة؛ جاوزَ الحدَّ فيه وأفرطَ؛ أخطأ؛ جَهِل (الأقرب).

فالمراد من لم يسرفوا: ١- أنهم لا ينفقون أموالهم في غير طاعة الله، ٢- أنهم ينفقون بالقدر المناسب ٣- لا ينفقون في غير محلّه.

لم يقتروا: قتَر يقتُر على عياله: ضيَّق عليهم في النفقة. وقتّر الشيءَ: ضمّ بعضه إلى بعض. وقتَر الأمر: لازَمه. وقتَر ما بين الأمرين: قدّره وخمّنه (الأقرب)

قواما: القَوامُ: الاعتدال؛ ما يُعاش به (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إن من علامات عباد الرحمن أنهم يراعون عند الإنفاق أمرين: أولهما أنهم لا يسرفون، وثانيهما أنهم لا يبخلون.

لقد تفاقمَ مرض الإسراف في هذا العصر كثيرًا، حتى صارت علامة المسلم أن ينفق كل ما يملكه ولا يُبقِ عنده شيئًا. وهذا يعني أن القرآن الكريم يصف المؤمن الحق بأنه لا يسرف، بينما صارت علامة المسلم الصادق عند الناس في هذا العصر أنه ينفق كل ما يملك.

كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يقول إن فتى ورِث من أبيه ثروة كبيرة، فدعا أصحابه وقال لهم: أخبِروني كيف أنفق هذه الثروة، فأشاروا عليه باقتراحات شتى، ولكنه لم يُعجب بها. وذات يوم كان يمرّ بالسوق، فرأى تاجر القماش يشق القماش، فأعجبه صوت شقّ القماش. فأمر خدمه بإحضار القماش بكميات هائلة ثم أمرهم بأن يشقّوه أمامه. فكانوا يحضرون له الأقمشة ويشقّونها من الصباح إلى المساء، فكان يفرح بالأصوات المنبثقة من شق القماش. لا شك أن الفتى قد أنفق أمواله، ولكن ما أتعسَه من إنفاق!

إذًا، بهذا الأسلوب يصبح المرء مفلسًا في يوم واحد وإن كان يملك مئات الملايين. لقد شجب الله تعالى الكافرين في القرآن الكريم بسبب هذا العيب فقال ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا﴾(الفجر:٢٠).. أي أنهم يرثون من آبائهم أموالا طائلة، ولكنهم يُفنونها في صنوف الترف والملذات بدلاً من أن يستثمروها، مما قد أخلّ بقوتهم العملية وأصابهم بالانحطاط والزوال.

كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يقول: إن كسب المال سهل، ولكن إنفاقه جدُّ صعب. وهذا القول حقٌّ مئة بالمئة. هناك كثير من الناس في الدنيا يكسبون الأموال، ولكن لا يعرفون كيف ينفقونها، فيظلّون دائما في الضوائق المالية. وهناك كثيرون غيرهم يكسبون القليل، ولكن يعرفون كيف ينفقونه، فيعيشون بالمال القليل سعداء.

فالإسلام يخبرنا أن من علامات عباد الرحمن أنهم حين ينالون الغلبة في الأرض لا يسرفون في توزيع خزائن الأرض ولا يبخلون أيضًا بها. بمعنى أنهم لا يكنزون الأموال القومية مغلقة في الخزينة فيعيقوا رقي القوم والوطن، فيشكو منهم القوم.

ونجد أن الرسول ﷺ قد قدّم هذه الأسوة في حياته العملية في هذا المجال أيضًا. لقد جعله الله تعالى ملِكًا ووضع في يديه أموالا طائلة، ولكنه لم يسرف في إنفاقها، كما لم يبخل أيضا ليحرم أحدًا حقَّه. لقد كان ﷺ شديد الحرص في إنفاق الأموال القومية وتوزيعها، فقد ورد في الحديث أنه جيء النبي ﷺ بأسرى الحرب مرة، فجاءت فاطمة – رضي الله عنها – إلى بيته ﷺ فلم تجده. فلم تستطع انتظاره طويلا وقالت لعائشة رضي الله عنها: إذا جاء النبي ﷺ فبلِّغيه عني أن يدي قد أصابها ما أصابها من كثرة الطحن بالرحى، فليته يعطينا بعضًا من هؤلاء الأسرى فيساعدني في الطحن. ولما رجع النبي ﷺ حكت له عائشة ما قالت فاطمة. فذهب ﷺ بالليل إلى بنته وقال لها: يا ابنتي، ألا أدلّك على ما هو خير مما سألتني اليوم؟ قالت: نعم يا رسول الله. قال: إذا أويتِ إلى فراشك قولي "سبحان الله" ثلاثًا وثلاثين مرة، و"الحمد لله" ثلاثًا وثلاثين مرة و"الله أكبر" أربعا وثلاثين مرة. (البخاري: كتاب النفقات، باب عمل المرأة في بيت زوجها)

وقد حدث ذلك في الفترة التي كان النبي ﷺ قد أصبح ملِكًا، وكان بإمكانه أن يعطي بنته بعض الأسرى، لأنه كان سيوزعهم على صحابته في كل حال. وكان لعليّ رضي الله عنه من الحق ما ليس لغيره من الصحابة، ولكن النبي ﷺ لم يرض أن يعطي أقاربه خادمًا من الأسرى حتى لا يستبيح ملوك المسلمين أموال الناس في المستقبل بحجة ما فعله ﷺ. لا شك أن النبي ﷺ كان ينفق على نفسه وعلى أقاربه من أموال الغنائم ما جعله الله نصيبا له ولأقاربه، ولكنه ﷺ لم يكن ينفق مثقال حبّة شعير على نفسه ولا على أقاربه ما لم يكن من حصّته رغم كونه ملِكًا مقتدرًا. و لم يحبّ ﷺ أن يضيع شيء من أموال المسلمين أو يُنفَق في غير محلّه.

ذات مرة جاءته ﷺ "تمر الصدقة"، وبدأ الحسن والحسين يلعبان به ووضع أحدهما تمرة في فمه، فأخرج النبي ﷺ التمرة من فمه بسرعة وقال: ألا تعلم أن هذا حقّ الفقراء، وأن آل محمد لا يأكلون حقّ الفقراء. (البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ صدقة التمر عند جرام النخل)

هذه الواقعة تبيّن لنا مدى حرص الرسول ﷺ على أموال المسلمين ومدى حيطته في إنفاقها.

وهكذا عمل كل الخلفاء الراشدين بعده ﷺ، فلم ينفقوا شيئا من أموال بيت المال في غير محلّه رغم كونهم أكثر قوة وعظمة من قيصر وكسرى. بل حافظوا على كل قرش من أموال المسلمين. وإذا رأوا بعض المسؤولين يسرفون في أموال المسلمين عزلوهم بدون تردد. ورد في التاريخ أن عمر رضي الله عنه لما ذهب إلى بيت المقدس في خلافته وجد بعض الصحابة يلبسون ثيابا من حرير، أي ثيابا فيها بعض الحرير لأن الثياب التي كلها حرير لا يجوز لبسها للرجال إلا في مرض. فسخط عمر رضي الله عنه على هؤلاء سخطًا شديدا وقال: أصبحتم تركنون إلى الراحة وتلبسون الحرير؟ فرفع أحدهم قميصه وكان قد لبس تحته قميصا سميكا من الصوف، وقال لعمر رضي الله عنه: لم نلبس الثياب الحريرية لأننا نحبّها، بل لأن أهل هذا البلد معتادون على رؤية أمرائهم في مظهر الأبّهة والعظمة، فغيّرنا ملابسنا تمشيًا مع سياسة أهل البلاد وإلا نحن لم نركن إلى البذخ والترف.

فعمل الصحابة يدلّ على أنهم لم يميلوا إلى الإسراف في زمن غلبتهم، وإذا حصل منهم تقصير قام الخلفاء بتعنيفهم ونصحوهم بالبساطة في العيش وبعدم الميل إلى الإفراط والتفريط في إنفاق أموال المسلمين.

ينفق الناس في هذا العصر أكثر من طاقتهم على الحلي وما إلى ذلك بمناسبة الزواج والأعراس من أجل التظاهر والتباهي، وهذا لا يؤدي إلى أي فرحة ولا راحة في نهاية المطاف إذ يقترضون من الآخرين فيعانون في دفع هذه الديون. لو كان عند أحد مال وافر فلا بأس في أن ينفق عند زواجه بقدر مناسب، ولكن الذي ليس عنده مال ومع ذلك يقترض من أجل التباهي والتظاهر، فهذا إسراف.

ولكن علينا أن نتذكر بأن شكل الإسراف يتغير بتغيير الأحوال. فمثلا لو كان دخل أحد أربعة آلاف روبية شهريا على سبيل المثال، ويشتري خمسة أو سبعة من الملابس المتوسطة الثمن، فهو ليس بمسرف بحسب ظروفه المادية، ولكن لو أن زوجته وأولاده مرضوا – لا قدّر الله – واضطر لعلاجهم عند الأطباء وشراء

الأدوية بحوالي خمس أو سبعمئة من الروبيات شهريا، ومع ذلك لم يقلل مما ينفق على أكله وشربه وملابسه، فيصبح عندها مسرفًا، مع أنه لن يُعَدّ مسرفًا في ظروفه العادية. كذلك إذا عنّت للمرء ضرورات جديدة ولكنه استمر ينفق على الأمور الأخرى كالسابق فهذا أيضًا إسراف. فمثلاً إن جماعتنا اليوم بحاجة إلى ملايين الروبيات لإشاعة الإسلام، حيث يطالبنا الناس من مختلف البلاد والأقطار بأن نبعث إليهم رجالا يعلّمونهم الإسلام، ونزودهم بالمنشورات التي تزيل شبهاتهم واعتراضاتهم. ولو أن أحدًا من جماعتنا لم يقلل من نفقات طعامه وشرابه ولباسه في هذه الأيام و لم يوفر أكثر ما يستطيع لإشاعة الإسلام، فإنفاق على أكله وشربه وملبسه بهذا الشكل سيُعَدّ من الإسراف يقينًا، وإن كان لا يُعَدّ إسرافا في الظروف العادية. ومن أجل ذلك قد دعوتُ الجماعة إلى المشروع المسمى "تحريك جديد"، ونصحتهم أن يتناولوا لونًا واحدا من الطعام، ومن كان عنده بضعة أطقم من الملابس فعليه أن لا يشتري المزيد من الملابس إشباعًا لرغبته فقط. إن الذين يشترون ملابس جديدة بكثرة عليهم أن يشتروا نصفها أو ثلثها أو أكثر قليلا. أما النساء فعليهن أن يعقدن العزم على أن لا يشترين الثياب الجديدة لمجرد أنهن أُعجبن بها، بل يشترينها عند الضرورة فقط. ولا ينفقن شيئًا على زركشة الثياب أكثر، كما لا يدمّرن أموالهن في شراء الحليّ الجديدة. وقد قلتُ للأطباء أن يبذلوا كل ما في وسعهم لكي ينفقوا القروش مكان الجنيهات ولا يصفوا للمريض أدوية باهظة الثمن إلا إذا لم يكن هناك بد من ذلك إذ سيموت بدونها. عليهم أن يُعملوا عقولهم في اختيار أرخص الأدوية الناجعة لمرضاهم بدلا من أن يضيعوا أموالهم على شراء أدوية جديدة تروّجها بعض الشركات. ولكن المؤسف أن الأطباء لم يستمعوا لقولي وإن أشد التجارب مرارةً خلال خلافتي كلها هي ما رأيته من قِبل الأطباء الأحمديين. وقد نصحت بشأن ولائم الزواج أيضا بأنه يكفي أن يدعى إليها بضعة أشخاص بدل من أن تُهدر الأموال على إطعام أناس كثيرين، بل يكفي أن يأتي كل واحد من المدعون إلى العرس بطعامه من بيته إلى الوليمة ويقدّم أهل العرس طعامًا لشخص واحد. لقد أعطيتُ هذه التعليمات لأن الإسلام بحاجة إلى تضحيات مالية

في هذا الزمن، ولو أنفقنا جميع أموالنا على الأكل والشرب واللباس والزينة والراحة، فمن أين تُسد ضرورات الإسلام؟

والحق أن الإسلام لا يطالب بمثل هذه التضحيات في كل ظرف ووقت، بل يطالبنا بتضحيات مختلفة في ظروف مختلفة، ولولا ذلك لما قدّم أبو بكر ﷺ عند إحدى الغزوات كل ما في بيته ولما أتى عمر ﷺ بنصف ما في بيته. لقد وقعت في زمن النبي ﷺ حروب عديدة، ولكن أبا بكر ﷺ لم يقدّم في كل حرب كل ماله ولا عمر ﷺ نصف ماله. بل قد حدث في إحدى الحروب حين فكّر عمر أن هناك حاجة ماسة للتضحية في هذه المرة، وسيسبق أبا بكر في التضحية، فجاء بنصف ما يملك. لقد ثبت من ذلك أن أبا بكر لم يقدّم حتى نصف ماله من قبل في أي مرة، وإلا كيف فكّر عمر ﷺ أنه سيسبق أبا بكر بالتضحية بنصف ما يملك؟ أما أبو بكر فكان قد قرر بالتضيحة بكل ما يملك نظرًا لخطورة الموقف في تلك المرة، فجاء بكل ماله، وعندما رآه النبي ﷺ، وكان يعرف وضعه الاقتصادي قال لأبي بكر: ماذا تركتَ في بيتك؟ فأجاب: الله ورسوله. ولما سمع عمر قول أبي بكر أدرك أنه لا يقدر على أن يسبق أبا بكر – رضي الله عنهما. (الترمذي: أبواب المناقب، باب مناقب أبو بكر)

لقد اتضح من هنا أن الإسلام يكون حينًا بحاجة إلى التضحيات أكثر وفي حين آخر أقل. ولكن من واجب المؤمن أن يجعل نفقات حياته في حدّ المعقول ولا يسرف، حتى إذا جاءه النداء بتقديم التضحيات المالية لبّاه مسرعًا دون أن يعيقه إسراف.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾.. أي من علامات عباد الرحمن أنهم لا يبخلون. وقد بيّنا عند شرح الكلمات أن من معاني "قاتر" من يظل يجمع المال، ومنه اشتق معنى البخل، لأن المرء إنما يستطيع جمع المال إذا لم ينفقه، وليس البخيل إلا من لا ينفق في محل الإنفاق رغم توفر المال عنده. فالقاتر هو في الحقيقة مَن يجمع المال ولا ينفقه على الذين يجب الإنفاق عليهم.

الغريب أن الله تعالى لم يقل هنا أن الذي لا ينفق ماله على الأقارب والمحتاجين وغيرهم هو إنسان سيئ، ذلك لأن الذي لا يملك مالاً هو أيضًا لا ينفق على أقاربه والمحتاجين، فهل هو الآخر يخرج من زمرة عباد الله الصالحين؟ فمثلا هناك شخص جائع ويأتيه أحد الفقراء ويسأله شيئا يأكله، ولكنه لا يعطيه إذ ليس عنده شيء، ومع ذلك لن يُعدّ هذا عند الله بخيلاً. ولكن الذي عنده مال ومع ذلك لا ينفقه على الآخرين، فهو آثم عند الله بلا شك. ولذلك لم يقل الله تعالى هنا أن عباد الرحمن الذين ينفقون حتمًا، بل قال إن عباد الله هم أولئك الذين ﴿لَمْ يَقْتُرُوا﴾، والقاتر مَن يجمع المال ولا ينفقه على الأقارب والمساكين والمحتاجين. إذًا، فقد أشار الله تعالى بكلمة واحدة إلى أمرين: أحدهما أن لا اعتراض على من لا ينفق لأنه لا يملك المال، إنما الاعتراض على من يملك المال، ولكنه يجمعه ويكنزه بدل أن ينفقه على ذوي الحاجة. وثانيهما أن مجرد جمع المال ليس بأمر سيئ في حد ذاته، بل إن القبيح هو أن يُمسك المرء المال عنده ولا ينفق على الذين هو مسؤول عن أكلهم وشربهم ورعايتهم. لذا فعلى كل مؤمن أن يجتنب ذلك. البخل عيبٌ خطير تستقبحه جميع الشعوب وتعتبره خلاف الأخلاق الحميدة، فلو سميتَ المرءَ بخيلا اعتبره سبًّا. فيقولون عندنا إذا أرادوا مذمة شخص: "بخيل يمتص الذبابة".. أي قد بلغ من البخل أنه لو سقطت ذبابة في طعامه امتصّها أيضا. ويصاب المرء بالبخل نتيجة أمور بسيطة جدا. وبوسع الآباء حماية أولادهم من مرض البخل لو أرادوا ذلك. فمثلاً إذا جاء الفقير على بابك وطلب شيئا، فالأفضل أن تعطيه شيئا وتعامله بلطف، ولكن بعض الناس يغضبون ويقولون: لا تعطوه شيئا، إنما عليه أن يكسب بنفسه فيأكل. ومثل هذا الكلام يصيب الصغار بمرض البخل. كذلك إن الأطفال الذين لا يذهبون للمرحاض فورًا حين شعورهم بالحاجة إلى ذلك، بل يتأخرون فهم أيضًا يصابون بالبخل حين يكبرون. لا شك أنهم يتركون هذه العادة عندما يكبرون باعتبارها لغوًا، ولكنها تؤثر على أخلاقهم سلبيًا حيث لا ينفقون أموالهم في الحاجات الضرورية أيضا، بل يمسكون بالمال، فيُحرَمون من كل أنواع السهولة كما لا يحترمهم الأقارب والغرباء على سواء. ولذلك قال القرآن الكريم إن من

أكبر أضرار البخل أنه لا يضر إلا صاحبه، فقال ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾(محمد:٣٩)؛ ذلك لأن بخله يمنعه من أن يأكل طعامًا جيدا، ومن أن يلبس لباسًا مناسبا، ومن أن يبني بيتًا مريحا، ومن أن ينفق على شراء الدواء إذا مرض، ومن أن يساعد أقاربَه في محنهم؛ فيعيش في عناء دائم، كما لا يلقى الاحترام من أقاربه ولا معارفه. وكذلك إذا لم ينفق ماله لسدّ الحاجات القومية فكل القوم يحتقرونه. ولكن عباد الرحمن بريئون من كل هذه العيوب، فلا ينفقون أموالهم في معصية الله ولا ينفقونها في غير محلّها، كما لا يتجاوزون عند الإنفاق حد الاعتدال. ثم لا يُنسيهم حب المال أداء فرائضهم وواجباتهم بصدد المال، بل يكون تصرُّفهم معتدلاً بريئًا من وصمة الإفراط والتفريط.